سورة الفاتحة

١ـ **سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة**: أنهاها صاحب الإتقان إلى نيف وعشرين بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف.

ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب؛ فلنقتصر على بيان هذه الأسماء الثلاثة. ١٣١/١

٢ـ **وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوهاً ثلاثة: أحدها**: أنها مبدوة ومفتتحة؛ فكأنها أصلُه ومنشؤه؛ يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء القرآن قد ظهر فيها؛ فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ؛ فيكون أم القرآن تشبيهاً بالأم التي هي منشأ الولد؛ لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن، وهي ثلاثة أنواع: الثناء على الله ثناءً جامعاً لوصفه بجميع المحامد، وتنزيهه من جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء، وذلك من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ والأوامر والنواهي من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والوعد والوعيد من قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ إلى آخرها؛ فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها؛ لأن القصدَ من القرآن إبلاغُ مقاصدِه الأصلية وهي صلاح الدارين، وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت

الأوامر والنواهي على معرفة الآمر، وأنه الله الواجب وجوده خالق الخَلق لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب، والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد.

والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع؛ فإن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ حمد وثناء، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ من نوع الأوامر والنواهي، وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر المغضوب عليهم، والضالين يشير -أيضاً- إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أنها تعدل ثلث القرآن لأن ألفاظها كلها ثناء على الله -تعالى-.

الثالث: أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية، والأحكام العملية؛ فإن معاني القرآن، إما علوم تُقْصَدُ معرفتها، وإما أحكام يقصد منها العمل بها؛ فالعلوم كالتوحيد، والصفات، والنبوءات، والمواعظ، والأمثال، والحكم، والقصص، والأحكام إما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب أي العقول وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة، أو التضمن، أو الالتزام. ١/١٣٣-١٣٤

٣- **وهذه السورة وضعت في أول السور؛ لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب،** مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن -كما علمت آنفاً- وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال.

وهذه السورة مكية باتفاق الجمهور، وقال كثير: إنها أول سورة نزلت، والصحيح أنه نزل قبلها ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وسورة المدثر، ثم الفاتحة.

وقيل نزل قبلها ـ أيضاً ـ ﴿ ن وَالْقَلَمِ ﴾ وسورة المزمل.

وقال بعضهم: هي أول سورة نزلت كاملة أي غير منجمة، بخلاف سورة القلم.

وقد حقق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة؛ فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها، وقد عدت في رواية عن جابر بن زيد السورة الخامسة في ترتيب نزول السور.

وأيا ما كان فإنها قد سماها النبي ﷺ فاتحة الكتاب، وأمر بأن تكون أول القرآن.

قلت: ولا يناكد ذلك نزولها بعد سور أخرى؛ لمصلحة اقتضت سبقها قبل أن يَتَجمَّع من القرآن مقدارُ يصير به كتاباً، فحين تجمَّع ذلك أنزلت الفاتحة؛ لتكون ديباجة الكتاب. ١/١٣٥ـ١٣٦

٤ـ **البسملة اسم لكلمة باسم الله**، صيغ هذا الاسم على مادة مؤلفة من حروف الكلمتين (باسم) و(الله) **على طريقة تسمى النحت**[١] وهو صوغُ فعل مُضِيٍّ على زنة فَعْلَلَ مؤلفة مادته من حروف جملة، أو حروف مركب إضافي، مما ينطق به الناس اختصاراً عن ذكر الجملة كلها؛ لقصد التخفيف؛ لكثرة دوران

---

١ ـ النحت في اصطلاح علماء فقه اللغة: أن يُؤخذ من كلمتين فأكثر كلمة واحدة.

أو هو: استخراج كلمة واحدة من كلمتين فأكثر.

وله تفصيلات ليس هذا محلّها. (م)

ذلك على الألسنة.

وقد استعمل العرب النحت في النسب إلى الجملة أو المركب إذا كان في النسب إلى صدر ذلك أو إلى عجزه التباس، كما قالوا في النسبة إلى عبد شمس: عَبْشَمِيّ؛ خشية الالتباس بالنسب إلى عبدٍ أو إلى شمس، وفي النسبة إلى عبدالدار: عَبْدَرِيّ كذلك، وإلى حضرموت: حضرمي. ١٣٧/١

٥- **وقد رسم أسلوب الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد للمقدمة: القاعدة الأولى**: إيجاز المقدمة؛ لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، وهو ظاهر في الفاتحة، وليكون سنة للخطباء؛ فلا يطيلوا المقدمة؛ كي لا ينسبوا إلى العي؛ فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة.

الثانية: أن تشير إلى الغرض المقصود، وهو ما يسمى براعة الاستهلال؛ لأن ذلك يهيئ السامعين؛ لسماع تفصيل ما سيرد عليهم؛ فيتأهبوا لتلقيه إن كانوا من أهل التلقي فحسب، أو لنقده وإكماله إن كانوا في تلك الدرجة، ولأن ذلك يدل على تمكن الخطيب من الغرض، وثقته بسداد رأيه فيه بحيث ينبه السامعين لوعيه، وفيه سنة للخطباء؛ ليحيطوا بأغراض كلامهم.

وقد تقدم بيان اشتمال الفاتحة على هذا عند الكلام على وجه تسميتها أم القرآن.

الثالثة: أن تكون المقدمة من جوامع الكلم، وقد بين ذلك علماء البيان عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيها.

الرابع: أن تفتتح بحمد الله. ١٥٣/١ [(١)]

٦ـ **فالفاتحةُ تضمَّنت مناجاةً للخالق** جامعةً التنزهَ عن التعطيلِ، والإلحاد، والدّهرية بما تضمنه قولُه: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وعن الإشراك بما تضمّنه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وعن المكابرةِ والعناد بما تضمنه ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾.

فإنَّ طلبَ الهدايةِ اعترافٌ بالاحتياج إلى العلم، ووَصْفَ الصراطِ بالمستقيم اعترافٌ بأن من العلم ما هو حقٌّ، ومنه ما هو مشوبٌ بِشُبَهٍ وغَلَط.

ومَنِ اعترَفَ بهذين الأمرين فَقَدْ أعدَّ نفسَه لاتِّباع أَحْسَنِهما، وعن الضلالات التي تعتري العلومَ الصحيحةَ، والشرائعَ الحقةَ؛ فتذهبُ بفائدتها، وتُنْزِلُ صاحبها إلى دركةٍ أقلَّ مما وقفَ عنده الجاهلُ البسيطُ، وذلك بما تضمَّنه قولُه: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ كما أجملناه قريباً.

ولأجل هذا سُمِّيَتْ هاتِه السورةُ أُمَّ القرآن ـكما تقدمـ.

ولما لُقِّن المؤمنون هاتِه المناجاةَ البديعةَ التي لا يهتدي إلى الإحاطة بها في كلامه غيرُ علامِ الغيوب ـسبحانهـ قُدِّم الحمدُ عليها؛ ليضَعَه المناجون كذلك في مناجاتهم جرياً على طريقة بلغاء العرب عند مخاطبة العظماء أن يفتتحوا خطابهم إياهم، وَطِلْبَتَهم بالثناء، والذكرِ الجميل.

---

١ ـ يُلاحظ أن المؤلف رحمه الله قال في بداية الفقرة: «وقد رسم أسلوب الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد للمقدمة ...» ثم ذكر الرابع. (م)

قال أميةُ بنُ أبي الصلتِ يمدحُ عبدَ اللهِ بنَ جُدْعان:

أَأَذْكُرُ حاجتي أم قَدْ كَفاني ... حياؤك إن شيمتَك الحياءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوماً ... كفَاه عن تعرُّضه الثناءُ

فكان افتتاحُ الكلامِ بالتحميد سُنَّةَ الكتابِ المجيد، لكل بليغ مُجيد. ١/١٥٣-١٥٤

٧- **واعلم أن الغضب عند حكماء الأخلاق مبدأ من مجموع الأخلاق الثلاثة الأصلية** التي يعبر عن جميعها بالعدالة وهي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، فالغضب مبدأ الشجاعة إلا أن الغضب يعبر به عن مبدأ نفساني لأخلاق كثيرة متطرفة، ومعتدلة، فيلقبون بالقوة الغضبية ما في الإنسان من صفات السبعية، وهي حب الغلبة، ومن فوائدها دفع ما يضره، ولها حد اعتدال، وحد انحراف؛ فاعتدالها الشجاعة، وكبر الهمة، وثبات القلب في المخاوف.

وانحرافها إما بالزيادة فهي التهور، وشدة الغضب من شيء قليل، والكبر، والعجب، والشراسة، والحقد، والحسد، والقساوة، أو بالنقصان فالجبن، وخور النفس، وصغر الهمة؛ فإذا أطلق الغضب لُغَةً انصرف إلى بعض انحراف الغضبية، ولذلك كان من جوامع كلم النبيﷺ أن رجلاً قال له أوصني قال: «**لا تغضب**» فكر مراراً، فقال: «**لا تغضب**» رواه الترمذي.

وسئل بعض ملوك الفرس: بم دام ملككم؟ فقال: «لأنا نعاقب على قَدْرِ الذنب لا على قَدْرِ الغضب».

فالغضب المنهي عنه: هو الغضب للنفس؛ لأنه يصدر عنه الظلم والعدوان.

ومن الغضب محمودٌ: وهو الغضب لحماية المصالح العامة، وخصوصاً الدينية وقد ورد أن النبي كان لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمة من حرمات الله غضب لله. ١/١٩٨